هل الاديان منتشرة بين جميع الشعوب

نبذة من تاريخ الاديان بقلم الاب فردينان توتل اليسوعي

سؤال خطير بعيد النتائج طرحهُ في مجلة الهلال (اغسطس ص ١٢٤٠) نصيف افندي المنقبادي فاجاب عليهِ نفياً كما يلي:

«يعتقد كثير من الناس انَّ الاديان منتشرة بين جميع شعوب العالم بلا استثناء. فلا توجد جماعة من البشر متمدنة ام متوحشة الَّا وتدين بدين ما وتعبد اله (كذا) او آلهة او اصناماً. ولكن هذا وهم بعيد عن الحقيقة لا يطابق الواقع. اذ توجد شعوب عديدة لا تدين بدين ولا تعتقد أيَّة عقيدة بل لا تجد في لغاتها الفاظاً تدلّ على معنى من معاني الدين كاله او آلهة او عبادة او روح او خلود وما الى ذلك»

قال هذا وأتبعهُ ببعض شواهد معظمها للملحدين او ماديين كهربرت سبنسر او بعض السيَّاح الذين قطعوا مجاهل البلاد في قلب افريقية واقاصي آسية وجزائر اوقيانية فرمى كلامهم على عواهنهِ ولو تروَّى لما اقدم على بحث مثل هذا تنقضهُ كلّ الادلَّة العقليَّة والنقليَّة. ولان كاتب هذا الفصل عدَّل عن البينات العقليَّة التي كلّها تثبت كون الانسان العاقل بتجرُّد عقلهِ يرتفع من المنظورات الى موجدها ويشعر في ضميره بمسئوليَّتهِ أمام حاكم يطالبهُ يوماً عن اعمالهِ فيجزيهِ ثواباً او عقاباً فاكتفى بالادلَّة الوضعيَّة بذكرهِ شعوباً جهلوا الدين تماماً فنردّ عليهِ رأساً ونتجوَّل جولةً بين الشعوب قديمها وحديثها فنستفتيها في شأن اديانها كشفاً عن الحقيقة

ولا بُدَّ من ان نقدّم على كلامنا هذا الملحوظ بانَّنا نفهم هنا بمعنى الدين ما يربط المخلوق بكائن يسمو عليهِ وتنوط به اموره سواء عُرف ذلك الكائن كخالق ام هو واحد الذات واجب الوجود او متعدّد ذو شركاء او هو روح محض او متجسّم وما اشبه ذلك من الصفات الصحيحة او الخياليَّة

فوقوفاً على حقيقة الامر ها نحن نستقري اجمالاً تواريخ الشعوب مباشرةً بالشعوب الاولى التي سبقت التاريخ او بَعُد عنَّا عهدها. ثمَّ نلقي النظر على شعوب الشرق الاقصى

ثم الشرق الادنى ثم ننتهي الى شعوب الغرب اجمعين فيتضح من ذلك لكل رجل عاقل لا يكابر الحق انّ الدين من خواص البشر وانهُ بكل صدق قد حدّدوا الانسان تمييزاً لهُ عن الحيوان بذي الدين (Homo religiosus)

١ الشعوب الاولى

١ ﴿الشعوب السابقة التاريخ﴾ لم يبلغ الينا من تلك الامم البائدة كتابة توقفنا على احوالهم الدينيّة وانّما لدينا كثير من آثارهم الناطقة بمعتقدهم بعالم آخر وبحياة غير الحياة الحاضرة وبمبود يعتقدون وجودهُ . فمن ذلك المدافن المشيدة منذ عهد الانسان الاوّل في الطور الرابع من العهد الحجري فان اكرامهُ لموتاهُ وتجهيزه قبورهم بالاطعمة والآلات والاسلحة لدليل واضح على اعتقادهِ انها تفيدهم في حياة اخرى وانهُ في حياته كان جارياً بموجب تقاليد دينيّة معروفة

وفي المتاحف الكبرى قد أفرز قسمٌ كبير لبقايا تلك الشعوب القديمة من الالات الظرّانيّة والمصنوعات الخزفيّة وغيرها فمنها ما يشعر بمعتقدات دينيّة كتصاوير غريبة الشكل تُعد غالباً كاصنام

ويزيد الامر وضوحاً وجلاء لو قابلنا بين تلك الآثار الاوّليّة والتقاليد الدينيّة السائدة عند اجيال من الناس من البشر في عهدنا البعيدين عنّا تمدُّناً . فانّ بعض القبائل المتوحشة من الزنوج لا تزال تعيش كما كان يعيش الانسان قبل التاريخ او تكاد . فانها لا تعرف استعمال المعادن وهي على غاية السذاجة والشظف في معيشها وهي كما سنرى تؤمن بالله وبالحياة الاخرى . وتظهر اعتقادها ببعض الاشارات التي نراها في آثار الانسان السابق للتاريخ . مثلاً في نظام دفن اموتاها وفي التصاوير التي ترسمها على اسلحتها وعلى مساكنها . فمن التشابه بين حياة الانسان الاول وحياة هذه الشعوب يتاح لنا ان ننسب لاولئك التدين الذي نتحققهُ بهؤلاء . نعم ان هذه المقابلة لا تجاوز حدّ التخمين والترجيح لما بين الانسان الاول وبيننا من المجاهل التي تحول دون ان نترقى اكيداً الى معرفة احوالهِ الادبية . لكنها على كل حال تفحم مَنْ ينفي الدين من الزمان السابق للتاريخ اذ لا دليل يسوغ لنا هذا النفي بل اثبات التدين في ذلك العهد اقرب الى الصواب وارجح لحقيقة الامر الواقع .

٢ ﴿الشعوب المتوحشة﴾ ندعوها متوحشة ونكاد نفتت عليها بالاباطيل وكان الاحرى بنا ان ندعوها متأخرة او متقهقرة ويدعوها الفرنج الاولى (Les Primitifs) لتنائيها عنّا بالتمدن والتقاليد والعوائد. اكثرها يقطن افريقية وامريكة الشمالية والجنوبية واوقيانية وكلها لها دينها ومعتقداتها واننا اذا قابلنا ما بين تلك الاديان والمعتقدات منعمين النظر في ميزاتها الاصلية المشتركة بينها جميعاً آل امرنا الى معرفة تلك الاديان بجوهرها. نعرفها ليس فقط كما هي عليه في يومنا ولكن كما كانت عليه منذ القدم لان صفات الشعوب وعوائدهم المميزة لهم قد تكون كطبيعة ثانية يتوارثونها مع الدم فلا يكاد يمروها تغيّر مع تطور الايام. فالنخوة العربية واكرام الضيف تقاليد لا تزال مألوفة عند العرب في عهدنا كما عهدها اسلافنا مئات سنين قبلنا كذلك ما نعرفهُ عن عوائد الشعوب الاصيلة حالاً بالنسبة الى ماضيها

ولا يهمّنا ما يتشدّق به هذا او ذاك من المسافرين الذين قضوا بين الزنج مدة قصيرة واجتازوا ما بينهم اجتيازاً من غير ان يختلطوا بهم ويكتسبوا ثقتهم ويقفوا على اسرارهم وهم في اغلب الاحايين يجهلون لغتهم ولكن لنسمعنّ لجهابذة العلماء والمبشرين الذين قضوا معظم حياتهم بين القبائل التي يدعوها البيض متوحشةً عن تكبر وتهكم مع انّها لها آدابها وفضائلها ودينها كثيراً ما تخفيه عن عيون الاجانب انما تبوح بهِ الى من وجد الى قلبها بالمحبة سبيلاً. فاليك خلاصة معتقداتها :

(اولاً) يكاد هؤلاء الشعوب يُجمعون كلهم على الاقرار بمبدأ حيوي موجودٍ في الانسان يحيا بعد موتهِ ويبقى في موضع مخصوص حيث ينالهُ الاكرام اذا كان سبق وعاش بالاستقامة فان سعادتهُ بعد الموت تتعلق بتصرفه في الحياة الحاضرة

(ثانياً) ان نفوس الاموات التي ترقّت دون غيرها عن زلات البشرية تتحد بارواح تسمو على البشر فترشدهم وتؤثر في وجدانهم. على ان بعضها صالح لخيرنا وبعضها طالح لشرنا. فالى الصالحة منها تُقدَّم الصلوات والذبائح استدراراً لاحساناتها والى الطالحة دفعاً لاضرارها وذلك عن يد آباء العائلات اولاً ثم عن يد الكهنة المتدوبين لذلك

(ثالثاً) ما فوق هؤلاء الارواح المتفاوتة الكمال يميّزون روحاً اكبر يتسلّط على الناس وعلى الارواح وعلى القوى الطبيعية. ويطلقون عليهِ اسماء تدل على انهُ مكوّن

العالم والعليُّ والقوي وروح الكون والساكن في السماء وان بيده الحياة والموت وكل شيء منوط به وهو غير منوط بشيء . على انه متناء من البشر وصالح وكريم فهو اسمى مقاماً من ان يحتاج الانسان الى التفاني في عبادته . انما هذا الفتور الظاهر نحوه ادى ببعض المسافرين الى التوهم ان تَبَعَة هذا المذهب لا يؤمنون بالله

(رابعاً) يعلنون بانَّ الاعمال بعضها مباحة وبعضها محرمة فعلى الانسان ان يتقي الشر ويجري على سنة الناموس الادبي خاصةً بصيانته لكل ذي حق حقهُ والَّا فانهُ ينال جزاء ذنوبه . ويعتقدون بالفرق بين الاشياء الطاهرة المقدسة وبين النجسة . وان ديانتهم هذه لا تشمل الافراد فقط ولكن الأسر والمجتمعات وهي عندهم امر ضروري لا بد منهُ (١

واليك مع بعض التفصيل لائحة الشعوب الذين اجملنا معتقداتهم فيما سبق فترى ان الدين منتشر بينهم اجمعين (٢

١ ﴿في اوسترالية﴾ القبائل الجنوبية الشرقية . حالتها من التمدن متأخرة جدًّا وهي اشبه بحالة الانسان الاول فانها تجهل حتى استعمال الفخَّار ومع ذلك فانها تؤمن بالله ابي الجميع (All-Father)

القبائل التسمانية : وقد بادت مع الزمان فهي ايضاً كانت تعتقد الاعتقاد ذاتهُ

القبائل الشمالية تؤمن بالاله الاسمى على انه قلما يتدخل في شؤون البشر . وتشرك معهُ آلهة غيره

قبائل سوماترا وبورنيو وملقا تعتقد بالخالق والمشترع والديَّان وبالاله الاسمى

قبائل بولينيزيا والملوك (Moluques) كاد يزول اعتقادها بالاله الاسمى . لكنَّها تعبد الارواح الشريرة والابطال الميتولوجية ومع كونها تدهورت في اسفل دركات الانحطاط الديني فلها دين تدين بهِ

٢ ﴿في افريقية﴾ قبائل الاقزام (les Pygmées) وهي منتشرة في جزائر الاوقيانوس الهندي وفي غابات افريقية المجاورة لخطّ الاستواء وبينها وبين قبائل اللابون (Lapons) الشمالية بعض التشابه . ومن ميزاتها ان رجالها لا تتجاوز قامتهم طول

(١ راجع Mgr. Le Roy: la Religion des Primitifs p. 464-465

(٢ Hudy: Manuel d'Hist. des Religions. Tanqueray : de Vera Religione

المقر والنصف وآذانهم لا تزال لها مرتخيـة الاطراف وهم عريقون في القـدم وعلى وشك ان يبيدوا من الوجود . لا يزالون في عيشة مادية اقرب منها من عيشة الانسان الاول لا يكادون يعرفون استعمال الحديد يقتاتون من الصيد ومن اثمار البراري . وهم على جانب عظيم من السذاجـة والفقر الفكري واللغوي حتى ان البعض منهم لا يستطيع ان يعدّ اصابعه العشرة لان اسماء الاعداد عندهم لا تتجاوز الاربعة . ومع ذلك فهم يعتقدون بالموجود الاسمى وبصفاته الحسنى . ويعبدونهُ عبادةً بسيطة طاهرة لا يشركون فيها بينـهُ وبين الاوثان . ويحفظون لكل ذي حق حقـه ويخجلون من ارتكاب المنكرات ويتجنّبونها

قبائل البانتو (Bantous) وهم الزنوج سكان افريقية من اعالي النيل الاعلى الى بحيرة تشاد (Tchad) فهم يؤمنون بالموجود الاسمى وبالصانع والقوي الاعظم وصاحب السماء والنور . مَن لا ينالهُ سحر الساحرين وهو يصنع كل ما يشاء . وسلطان الارض المسكونة بالقبائل

٣ً في اميركا الشمالية ﴿ قبائل فرجينيا تعتقد بالاله الصالح محب السلام خالق العالم ومبدع الالهة . واسمه « اهونه »

قبائل باونيس (Pawnees) تعتقد بان الاله «تيراوا» موجود في كل مكان فهو يبغض السرقة وسوف يفتح مسكنه للعالم ؛ وبانّ الاله « كيتشو » صنع البشر والسماء فيصلّون ويرتلون لهُ ويرقصون

قبائل « السيو » تعتقد بالاله « نابي » الخالق معلّم الفنون المعلن ارادته بحوادث الزمان فانهُ ينتقم بالضربات ممن يخالف طاعته

قبائل « الزوني » تعتقد بالموجود الاسمى الخ

٤ً ﴿ في اميركة الجنوبية ﴾ قبائل البيرو والبتاجوني والارض النارية تعتقد كلها بالاله الاسمى اما عبادتها لـه فهامدةٌ لانهم يبذلون جهودهم في عبادة الارواح الشريرة وارضائها بالذبائح اتقاء لشرورها

٢ً شعوب الشرق الأقصى

١ً ﴿ الصينيون ﴾ اقـدم ما يُعرَف من احوال الصينيين قبـل فيلسوفهم

كونفوشيوس انهم كانوا ذوي دين راقٍ تدلُّ عليهِ كتبهم السابقة لذلك المصلح. وفي اصلاحهِ ما يصرّح بعبادة الاله الاسمى « شانتي » واكرام السماء « طيان » بصفتهِ الادبية وقد جعلهُ كمراقب لاعمال البشر ليثيبهم عليها وامرهم باكرام الجدود. وفي كل ذلك اشارة ظاهرة الى حياة اخرى. هذا الى ما تسرّب الى الدين الصيني بتوالي الازمنة من الخرافات وعبادة الاوثان. لاسيما بشيوع الدين التاوي (Taoïsme) والدين البوذي. وكل هذه الاديان اذا نزعت عنها شيئاً من النظريات التي اشاعها بعض زعمائها حافلةٌ بالروح الديني واكرام الآلهة وخلود النفس.

٢ً ﴿الهنود﴾ لا يكاد يبلغ شعب من التمسك بالدين ما بلغهُ اهل الهند فان اقدم كتبهم المعروفة بالبذ (Védas) تذكر عدداً عديداً من الآلهة وقد زادت تعنتاً في الشرك بانتشار البرهمية والبوذية التي انتشرت هناك بالزاهد سكياموني غايتها ان ترقي الانسان بالزهد الى ان يتزج باللاهوت. وهذا كلهُ مهما تعدّدت اضاليلهُ لا يخلو من الدين ومن لواحقهِ باعتقاد خلود النفس وعالم آخر. وتراهم اليوم كما كانوا في اقدم عهد تاريخهم يقومون بفرائض عديدة نحو اصنامهم يعود معناها الى اعتقاد الآلهة وخلود النفس والثواب والعقاب

٣ً ﴿البابليون والكلدان﴾ انَّ آثارهم الباقية الى يومنا والراقية الى الالف الثالث قبل المسيح معظمها آثار دينية كهياكل لاكرام الآلهة وتماثيل لمجردات شتى واناشيد للآلهة وغير ذلك مما نشرهُ الاثريون في مجلدات ضخمة. فمن المستحيل اذن ان يُنسب الى تلك الامم العريقة بالقدم جهل الدين وما ينوط بهِ من علوم الآخرة

٤ً ﴿الفرس والماديون﴾ شاعت خصوصاً عند الفرس والماديين عبادة قوّات الطبيعة فعبدوا الشمس والنار وقالوا بالثنوية اي بمبدأين خير وشرّ متناقضين هرمزد إله الخير وأريمان إله الشرّ. وشاعت بينهم تعاليم زرادشت ومزدك. وليس في اساطيرهم الخرافية ما ينفي الدين بل مرجعها الى توطيدهِ لاسيما بالحكم في الآخرة على الاشرار بالجحيم وعلى الابرار بالنعيم

٣ً شعوب الشرق الادنى

١ً ﴿السّاميون﴾ من العبث ان نحاول اثبات الدين بين الشعوب الساميّة من

الشرق الادنى كالآراميين والعرب والادوميين والموآبيين والنبط فانَّ الاسفار المقدَّسة وكتب الاقدمين والآثار الباقية من أبنيتهم ومن مصنوعاتهم كلها لسان واحد تثبت اعتقادهم وجود الآلهة يسمو فوق جميعهم إله اعظم يدعونهُ إيل او إليون او الوهيم. وقد شاعت بينهم تقدمة الذبائح البشريَّة اكراماً لآلهتهم وتكفيراً عن سيئات قومهم واستمداداً لبركات معبوداتهم. اما بنو اسرائيل فكلّ يعرف دينهم القويم

٢ ﴿المصريون﴾ انّ آثارهم المكتشفة منذ مئة سنة خصوصاً معظمها تاريخٌ حيّ لمعتقداتهم بالآلهة يميزون بينها الهاً اعظم. وهذه مدافنهم وما سطّروهُ عليها من اسفار تعرف باسفار الموتى وغيرها فكلُّها تصف وصفاً جلياً ايمانهم بخلود النفس وبمحاسبة الانسان على اعماله بعد موته. فكفى بتلك الآثار الجليلة شاهداً ناطقاً يفحم كل الملحدين والزنادقة

٤ شعوب الغرب

١ ﴿اليونان﴾ ليس شعب اثرت تعاليمهُ الدينيَّة كاليونان في العالم القديم. فانَّ العلماء قد ألّفوا المجلّدات الضخمة في وصف معبوداتهم ومعتقداتهم المختلفة التي مع تباينها وسخافاتها تشهد لهم بروح الدين وبترابعهِ من المعتقدات في النعيم والجحيم وخلود النفس. فمن اراد ان يطلع على شيء منها عليهِ مراجعة علمهم المعروف بالميثولوجية

٢ ﴿الرومان﴾ كان للرومان ديانة قديمة مبنيَّة على قوّات الطبيعة وعلى عبادة الكواكب السيّارة كالمشتري والمرّيخ وزحل وعطارد. ثمَّ اختلطت بديانة اليونان وديانة الشعوب الاسيويَّة المختلفة. والآثار الدينيَّة الباقية في جوارنا من عباداتهم في بعلبك وبيت مري وافقا وسواحل الشام شاهد حيّ على تديُّنهم مهما كانت الاعتقادات الباطلة التي كانت تشين ذلك الدين فتمسخهُ مسخاً

٣ ﴿الغوليّون﴾ سكّان فرنسة القديمة. نعرف ما اختصُّوا بهِ من الدين فكانت لهم اصنامٌ يعبدونها ولها سدَنة يدعونهم درويد (Druides) مقيمون في خدمتها ويقدّمون لها القرابين والذبائح. وكانوا يؤمنون بالحياة الاخرى ويرجون منها كلّ خير ورفاهية. وكان رجاؤهم هذا يدفعهم الى تضحية حياتهم الحاضرة واحتقار الموت.

ولا تختلف عنهم الامم الساكنة اوربة الشمالية المعروفة بالاسكندينافية كانوا لا يكفون عن اكرام آلهتهم حتى انهم لا يأنفون من تضحية الذبائح البشرية لهم

ولا تشذ عنهم قبائل ﴿الجرمان﴾ الذين ميزوا بين آلهة عديدة الها اعظم كانوا يعبدونهُ في غاباتهم الكثيفة ولم يمثلوهُ بصور ولا دُمى ويؤمنون بالحياة الاخرى وثوابها وعقابها

هو صوت البشرية جمعاء سمعناهُ يتصاعد من كل انحاء المعمور فيردد ذكر الخالق الديان في المشارق والمغارب في كل زمان ومكان وينادي على رؤوس الاشهاد ما يوحيهِ اليهِ الضمير من واجب العلاقات بين العبد والسيد والاعتقاد بالحياة الاخرى . فاذا يبقى للمنتقادي بعد هذا فلنمعن النظر بادلته

يأتينا اوّلًا باقوال بعض الكتبة او السيّاح الذين لا يعوّل على قولهم وذلك لانهم من ذوي الغايات الذين يريدون الدفاع عن الحادهم باسنادهِ الى قبائل مجهولة . وهولاء لا تُقبل شهادتهم التي تبطلها اصوات الرأي العام والتاريخ القديم والحديث . وعلى فرض انهُ وُجد بعض الكفّار اعتقدوا بعدم وجود إله فانهم يُعدُّون من الشواذ والشواذ لا تُبنى عليهِ قاعدة . ولاسيما ان الامتحان كثيرًا ما يبيّن انّ قلبهم يكذب لسانهم وعند وقوع الخطر واقتراب الموت يباركون ما لعنوهُ ويلعنون ما استحبُّوهُ

اما القبائل المتأخرة التي ذكر المنتقادي جهلها لكلّ دين فانّ الذين رموها بهذه التهمة رووا الامر لاسباب خدعوا بها فانّ بعض القبائل لا تتظاهر بدينها امام الاجانب ولاسيما السيّاح البيض . ثمّ لبطلان شهادة الرواة سبب آخر جهلهم للغات بعض القبائل فلا يدركون معنى الالفاظ التي يشيرون بها الى معبوداتهم والى عقائدهم في عالم آخر

واليوم قد وجّه المرسلون الكاثوليك نظرهم الى هذا الامرُ الهامّ واخذوا يدرسون درساً عميقاً اخلاق تلك القبائل حتى وقفوا على كل اسرار حياتها وعلى افكارها بخصوص وجود الاله وخلود النفس والعالم الآخر . ففي السنة ١٩٠٦ أُنشئت في النمسة مجلّة دوليّة يديرها حضرة الاب شميدت (P. W. Schmidt) من جمعية الكلمة الالهية تحت اسم «الانسان» (Anthropos) يعرض فيها بكل اللغات الاوربية ما يرسلهُ اليهِ المرسلون من سائر اقطار المعمور بياناً لاخلاق الشعوب الذين يبشرونها ولاسيما معتقداتهم بخصوص وجود الاله وخلود النفس والثواب والعقاب في

الآخرة. فجمع شواهدهم في مجلّدات ضخمة ستوية وليس فيها شهادة عن قبيلة واحدة او شعب ايًّا كان إلّا وكلّهم يعتقدون وجود الخالق ولو تصوّروهُ بصور مختلفة غريبة ووجود الارواح ويؤيدون وجود عالم آخر يجازى فيهِ الانسان عن اعمالهِ

فيحقّ لنا من ثمّ ان ننكر الشواهد التي تشبّث بها المنقبادي ونعدُّ القول بعدم انتشار الاديان بين الشعوب ضلالًا وبهتانًا. أمّا الآية القرآنيّة التي استشهد بها المنقبادي: «وقالوا ما هي الّا حياتنا الدنيا نموت ونحيا» فهي ذات الآية التي سبق واعلن بهبا الملك والنبي دارد في المزامير (١٢ : ١) حيث يقول عن لسان الجاهل: قال الجاهل في قلبهِ ليس اله» ومثلهُ قول سفر الحكمة (٢ : ٥) عن الزنادقة: «انّما حياتنا ظلّ يمضي ولا يرجع لنا بعد الموت لانهُ يختم علينا فلا يعود احد». وقد وردت هذه الآيات تبكيتًا لبعض الجهّال الذين لاغراض باطلة نطقوا بها ليخمدوا اصوات ضميرهم ويتغافلوا عن ما سيطالبهم بهِ الديّان في ختام الحياة. فيا ليت المنقبادي فطن لهذه الحقائق قبل ان يجري في حلبةٍ ليس هو من فرسانها. والسلام على من اتّبع الهدى

عيد الصليب في رُبى لبنان

قصيدة نظمها في حفلة هذا العيد في مقام سيّدة البحر الاستاذ يوسف افندي النبراوي

أقبل العيدُ في رُبى لبنانِ يتلألا بحسنهِ الفتّانِ
دُمجتهُ أنامل الإحسانِ بجُمان التقى وزهر الجَنانِ
في رياض الصلاح والإيمانِ

هو عيد لهذه الجمعيّهْ يتجلّى بحلّةٍ ذهبيّهْ
يتباهى بعصبةٍ اخويّه وتشدّها روابطٌ دينيّهْ
أحكمتها محبّة الإخوانِ